مجلة الإحياء، المجلد: 19، العدد: 23، ديسمبر 2019، ص - ص: 31 – 50
الترقيم الدولي: 1112-4350 الترقيم الدولي الإلكتروني: 2588-2406

فقه الواقع في الحديث النبوي من خلال الدرس الباديسي

Reality conception in the prophet's Hadith through Ben Badis' course

د. نادية وزناجي
كلية العلوم الإسلامية – جامعة باتنة 1
didaouznadji@gmail.com

تاريخ الإرسال: 2019/10/22 تاريخ القبول: 2019/11/03

ملخص:

تتناول هذه الدراسة فقه الواقع في الدرس الحديثي عند الشيخ عبد الحميد بن باديس من خلال استجلاء مكانة الحديث النبوي في فكره، ودقة انتقائه للأحاديث المرادة بالدرس وتبويبها بما يحقق الهدف المرجو بأسلوب سهل مبسط، باعتبار الخطاب كان موجها لشرائح متعددة في المجتمع الجزائري.

و قد تجلت معالم ذلك في دعوته إلى التمسك بالكتاب والسنَّة كأصلين للهوية الوطنية، ومكافحة ما انتشر من بدع وخرافات في الوسط الاجتماعي آنذاك والدعوة إلى طلب العلم والتعلم والحث عليها، مؤكدا على مكانة المرأة في هذا المجتمع ونصيبها في العلم والتعلم، كونها عصب الأسرة المسلمة، والتأكيد على التكافل والتلاحم الاجتماعيين بين الأفراد ... وغيرها من الموضوعات.

لقد كانت دروس الحديث خاصة والدرس الباديسي عامة، أسلحة فعالة ضد مستعمر محتل يغذي روح الجهل والضلال والفرقة، وذلك تأكيدا منه على عمق المعايشة للواقع الجزائري.

الكلمات المفتاحية: ابن باديس؛ الحديث النبوي؛ الدرس الحديثي؛ فقه الواقع.

Abstract:

This study deals with the conception of reality in the modern lesson of Sheikh Abdul Hamid bin Badis through the clarification of the position of Hadith in his thought, and the accuracy of his selection

of the Hadiths in the lesson and classify them in order to achieve the desired goal in a simple and easy way, considering the speech was directed to multiple segments of Algerian society.

This has been reflected in his call to adhere to Quran and Sunnah as the origin of the national identity, and to combat the spread of heresies and myths in the social field at that time and call for seeking knowledge and learning and urging them, stressing the status of women in this society and its share in science and learning, being the backbone of the Muslim family, Emphasis on social solidarity and cohesion among individuals… and other topics.

The lessons of Hadith in particular and the Badisian lesson in general, were effective weapons against an occupied colonial who fed the spirit of ignorance, misguidance and division, as a confirmation of the depth of coexistence of the Algerian reality.

Key words: Ben Badis, Prophet's Hadith, Hadith course, reality conception.

مقدمة:

تهدف هذه الدراسة إلى بيان أثر فقه الواقع في معالجة مختلف القضايا والموضوعات المتعلقة بالمجتمع الجزائري من خلال الدرس الحديثي عند الشيخ ابن باديس .

فقد كان له رحمه الله-قدرة فائقة في استخلاص دروس حية، وعبر مفيدة وحكم بالغة من النصوص الحديثية النبوية التي تعرض لها بالشرح والتفسير...

بدت هذه القدرة في دقة انتقاء الأحاديث ذات الصلة بجانب من جوانب هذا الواقع المؤلم، فنراه يغوص في أعماق النص النبوي ويستنبط منه حقائق وقيم نفسية وأخلاقية، واجتماعية، وتاريخية وتشريعية وكونية كعادته في الدرس التفسيري أيضا ....موجها كل ذلك لخدمة الانسان والمجتمع مطبقا ذلك كله على المجتمع الجزائري والأمة الإسلامية.

و للوصول إلى هذه الأغراض كلها كان يختار عناوين فرعية ذات اتجاهات ذكية وإشارات لطيفة مثل: توجيه، تطبيق، اعتبار، عبرة، تبصرة، تحذير، تتميم، إرشاد، استدلال ... وغيرها.

مراعيا في هذه الدروس الحديثية بعدا واقعيا إصلاحيا يحكمه طرفان هما: بسط الواقع المؤلم بكل ملابساته، وإحكام الصلة بينه وبين النص النبوي والدعوة من خلاله إلى تغيير وإصلاح هذا الواقع...

فلم تكن عناية الشيخ موجهة إلى الجوانب الفقهية والتشريعية بل تجاوزت ذلك إلى القضايا النفسية الاجتماعية بل والسياسية والحضارية ذلك أن الهدف من وراء شرح السنَّة علاج مشكلات الأمة على جميع المستويات من خلال رصد مواطن الخلل ومظاهر القصور، ووصف الحلول الناجعة لذلك كله من السنَّة النبوية المطهرة.

إن المتتبع لمقالاته في"مجالس التذكير من كلام البشير النذير" لا ينفك مستنتجا أبرز المواضيع الحساسة التي عالجها الشيخ من خلال هذه المجالس وهذا ما اشتركت فيه مع "مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير في تفسير القرآن الكريم".

أولا: مكانة الحديث النبوي في الدرس الباديسي:

لقد كان الشيخ عبد الحميد شديد الاحتفاء والاهتمام بالسنَّة النبوية الشريفة، وكان يرى أن الانشغال بعلم الحديث من العلامات البارزة للحركة الإصلاحية التي أقام دعائمها على الكتاب والسنَّة، ووطد بنيانها عليهما، ووصل ليله ونهاره، وبياضه وسواده من أجل التمكين لها، والذود عنها مرضاة لله، وخدمة للأمة الإسلامية.

لذلك كان يدعو إلى الاقتصار على الصحيح من المرويات، ومحاربة الضعيف وعدم روايته، إلا مع بيان رتبته، لتحذير الأمة منه، ومحاربة الآثار السيئة التي يتركها الحديث الضعيف عند رواجه في عموم الناس على مستوى الفكر والاعتقاد والعلوم والسلوك.

يقول الشيخ –رحمه الله-: "تقوم الدعوة الإصلاحية على أساس من الكتاب والسنَّة فلا جرم أكان رجالها من المعتنين بالسنَّة، القائمين عليها رواية ودراية، الناشرين لها بين الناس...

ومن مظاهر هذه العناية تحريهم فيما يستدلون به ويستندون إليه منها فلا تجوز عليهم إلا ما يصلح للاستدلال والاستناد، ولا يذكرون منها شيئا إلا مع بيان مخرجه ورتبته حتى يكون الواقف على بينةٍ مما لو التزمه كل عالم كما هو واجب لما راجت الموضوعات والواهيات بين الناس فأفسدت عليهم كثيرا من العقائد والأعمال"[1].

و إيمانا منه بمكانة السنَّة النبوية[*] الشريفة في العملية التربوية، فقد جعلها مادة رئيسية وأساسية في البرنامج الدراسي والمقرر التعليمي لتلاميذه وطلابه . ففي البرنامج التعليمي الذي أعلنت عنه "الصراط السوي" لسان حال جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، والذي جاء فيه ما يلي: " تشتمل الدروس العلمية على التفسير لكتاب الله الحكيم وتجويده وعلى الحديث الشريف"[2]

إضافة إلى تقرير جريدة "البصائر "عن التعليم المسجدي والحركة التعليمية بالجامع الأخضر تعرض إلى العلوم التي تدرس فذكر التفسير والحديث"[3].

هذا وقد وجد الشيخ عبد الحميد بن باديس –رحمه الله-في السنَّة النبوية الشريفة القولية والفعلية والتقريرية، مصدرا متميزا ومادة حيوية في عمله الدعوي والإصلاحي، فكان كثير العودة إلى السنَّة النبوية إذا أراد أن يحارب فكرة خاطئة، أو يصحح وضعا شاذا، أو يدعو المسلمين إلى أمر جديد نافع، لأنه بهذا العمل كان يقوم بدور التأسيس والتأصيل لما يدعو إليه وأنه من الدين.

و لأنه كان يعلم علم اليقين بأن عموم المسلمين لما يؤصل لهم ما يدعوهم إليه فإنه يكون أدعى للقبول عندهم.

كما كان يعتبر أن سنة النبي ﷺ و حديثه هما المثال الأسمى لتجسيد معاني الشريعة المطهرة علما وعملا، لتحقيق الكمال الإنساني، وفي ذلك يقول بعد كلام عن آخر حديث في الموطأ: "... ونكتة أخرى وهو أن كل ما نأخذه من الشريعة المطهرة علما وعملا فإننا نأخذه لنبلغ به ما نستطيع من كمال في

حياتنا الفردية والاجتماعية، والمثال الكامل لذلك كله هو حياة محمد ﷺ في سيرته الطيبة فهذا الحديث[4] بعد ما تقدمه من الكتاب كله مثل الغاية من الوسيلة فسيرته ﷺ هي الجامعة لمحاسن الإسلام والغاية لكل كمال....."[5].

فكان لتلك الدروس الحديثية الأثر البالغ في دفع عجلة الإصلاح في الجزائر في تلك المرحلة لما حوته من خطاب لعامة الجزائريين وخاصتهم فيه حثّ على ضرورة التغيير ...وهذا إن دل على شيء فإنما هو مزيد عناية من الشيخ – رحمه الله- بالقرآن الكريم والسنَّة النبوية، إذ يعتبرهما أصلان لا ينفصلان عن بعضهما البعض.

هذا وقد تبوأ الحديث والسنَّة النبوية منزلة متميزة في فكر الشيخ ويرجع ذلك لطبيعة التكوين العلمي والثقافي اللذين حظي بهما. إذ المتتبع لأطوار حياته يلمس ذلك من خلال عدة عوامل، منها محيطه الأسري، تأثره بأعمدة الفكر والإصلاح في تلك المرحلة [6] وكذا رحلته إلى بلاد الحجاز عام 1913م ومكوثه فيها حوالي ثلاثة أشهر مما مكنه من إلقاء دروس علمية في مسجد النبي ﷺ ثم طوافه ببعض الأمصار الإسلامية ولقاؤه للعديد من علماء مصر والشام، مما أثر في شخصيته تأثيرا بليغا تجلى فيما بعد في حركته الإصلاحية.

إضافة إلى عكوفه على تدريس موطأ الإمام مالك في الجامع الأخضر بقسنطينة وختمه في ربيع الثاني سنة 1358هـ الموافق لـ جوان 1939م، وأقيم لذلك احتفال بتلك المناسبة السعيدة حضرها العلماء والأعيان والأشراف وعموم الناس.

أما الأمر الواضح الذي يبرز مكانة الحديث النبوي في فكر الشيخ وتجليها هو التزامه بتقديم دروس حديثيه يصدر بها مجلة "الشهاب" "بعنوان" "مجالس التذكير من كلام البشير النذير" أو جريدة البصائر أو السنَّة.

و كل هذه الدروس الحديثية طبعت لاحقا تحت مسمى "مجالس التذكير من كلام البشير النذير" فكان لتلك الدروس الأثر البالغ في دفع عجلة الإصلاح في الجزائر في تلك المرحلة مما يدل على مزيد عناية الشيخ رحمه الله بالقرآن الكريم والسنَّة النبوية..".

و من مظاهر بروز ملامح هذا البعد الواقعي في الدروس الحديثية ما اخترناه في هذا المقام على سبيل التمثيل لا الحصر:

1- تصحيح العقائد ومحاربة ظاهرة البدع في الوسط الجزائري.

2- التعلم والتعليم والحث عليهما، وحق المرأة في التعليم.

3- الحث على التكافل الاجتماعي ونبذ الفرقة.

والمتأمل لهذه النماذج المختارة وغيرها لا ينفك يدرك عمق تعايش الشيخ مع آلام وواقع مجتمعه عقديا وأخلاقيا وسياسيا واجتماعيا.

ثانيا: ملامح فقه الواقع في الدرس الحديثي عند الشيخ ابن باديس

لم يكن الدرس الباديسي في شرح الحديث النبوي درسا تقليديا جافا، بل كان متضمنا لفقه عميق لواقع مجتمعه، تنهش جسده أدواء عدة، يغذيها الاستعمار وأعوانه من جهل وفقر وظلم واستبداد، ذلك ما أثر على عقائد الناس وسلوكاتهم، وأفسد علاقاتهم الفردية والاجتماعية، وهو ما تجلى في جملة ملامح تم الوقوف على أهمها فيما يلي:

1- تصحيح العقائد ومحاربة البدع: إن الواقع الذي كان يعيشه الجزائريون تحت سيطرة الاحتلال الفرنسي وانتشار الجهل واستحكامه على العقول، بسبب انتشار البدع والخرافات بين الناس حيث أضحت البدعة سنة والسنَّة بدعة والذي غذاه الفراغ العقدي في الأوساط الاجتماعية آنذاك.

مما جعل الشيخ –رحمه الله-يكثر من الدروس الحديثية حول هذه المسألة بالذات وبعناوين متعددة ليبين من خلالها أنواعها وخطرها على المجتمع المسلم معالجا لها بتصحيح عقائد الناس وتخليصهم من ربقة الجهل بتعاليم دينهم...

فقد وجد الشيخ ابن باديس –رحمه الله- وهو يشرح سنة رسول الله – صلى الله عليه وسلم- القولية والفعلية والتقريرية، المجال أمامه واسعا والفرصة مواتية لتصحيح الكثير من العقائد التي شابها الكدر والعودة بها إلى حالة النقاء من كل شائبة، والتي كانت عليها في عهد النبي صلى الله عليه وسلم وصحابته الكرام فكانت له جهود جبارة في محاربة البدع وتصحيح العقائد والدليل على ذلك العناوين المختلفة لمقالاته المتعددة التي تطرق فيها لهذه الظواهر وخطرها على المجتمع المسلم: تذكر منها على سبيل المثال لا الحصر:

- مقال"لعن من اتخذ المساجد على القبور"[7].
- مقال"النهي عن البناء على القبور"[8].
- مقال "بناء المساجد على القبور من شرار الخلق عند الله يوم القيامة"[9].
- مقال"تأكيد النهي عن اتخاذ القبور مساجد"[10].
- مقال"من اتخذ القبور مساجد: الصلاة إليها"[11].

فكل هذه العناوين المتعددة كان الشيخ –رحمه الله- يصدرها تباعا من أجل الحد والقضاء على ظاهرة البناء على القبور المبتدعة.

و لم يكن الشيخ لينطلق في دروسه الحديثية من فراغ، إنما كان مبدؤه في انتقاء الدرس الحديثي انطلاقا من حالة واقعية يعيشها الشعب الجزائري أو تمليها ظروف خاصة معمما أحيانا ومخصصا أخرى.

ففي مقال له بعنوان: "الشرك والوثنية ودعوى النبوة"[12] وهو يشرح حديث ثوبان –رضي الله عنه- قال: قال: رسول الله ﷺ: "لا تقوم الساعة حتى تلحق قبائل من أمتي بالمشركين وحتى يعبدوا الأوثان، وأنه سيكون في أمتي ثلاثون كذابون كلهم يزعم أنه نبي، وأنه خاتم النبيين، لا نبي بعدي"[13].

سلط الشيخ -رحمه الله- الضوء وهو يشرح هذا الحديث على أصناف البدع في واقع المجتمع الجزائري محذرا منها ومن اتباعها واتخاذها سنة متواترة في حياة الناس...فقال: "وفي الناس اليوم طوائف كثيرة تتوجه لبعض الأموات وتتضرع لهم وتقف أمام قبورهم بخضوع وخشوع تامين وتتضرع وتناديهم على اعتقاد أنهم يقربونها إلى الله ويتوسطون بها إليه ويزيدون أنهم ينصرفون لها بقضاء الحوائج وجلب الرغائب ودفع المصائب ومن أعمال المشركين في الجاهلية أنهم يسرقون الأنعام لطواغيتهم فينحرون عندها طالبين رضاها ومعونتها.

وفي الناس طوائف كثيرة تسوق الأنعام إلى الأضرحة والمقامات تنحرها عندها إرضاء لأهلها - على حد زعمهم- وطلبا لمعونتها أو جزاء على تصرفاتها وما جلبت من نفع أو دفعت من ضر.

ومن أقوال المشركين في الجاهلية حلفهم بطواغيتهم متعظما لها، وفي الناس اليوم طوائف كثيرة يحلفون بالله فيكذبون ويحلفون بمن يعظمونه من الأحياء أو الأموات فلا يكذبون"[14].

وإيمانا منه بأن المنهج الإصلاحي لا يُكتفى فيه بعرض الواقع المؤلم والنقمة عليه فقط بقدر ما يتطلب نجاحه عرض الحلول والوسائل وأهمها الدعوة إلى تغييره مناشدا أصحاب الشأن لتلبية دعوته إلى ذلك.

فبعد بيانه لهذه الأصناف وغيرها في واقع الناس دعا العلماء أن يهبّوا لتخليص الناس منها امتثالا لفعل النبي ﷺ واقتداء بالعلماء الصالحين فيقول:

"هذا كله واقع في الأمة لاشك فيه، وكما كان من نصح نبيها صلى الله عليه وسلم أن أنذرها بوقوعه فيها قبل وقوعه فإن نصح علمائها لها أن يعرفوها به اليوم بعد وقوعه، ويصوروه لها على صورته الشركية والوثنية التي ينفر منها المسلم بطبعه.و لو أن الأمة سمعت صيحات الإنكار من كل ذي علم لأقلعت عن ضلالها ورجعت إلى رشادها فما أسعد من نصحها من أهل العلم وجاهد لإنقاذها وما أشقى من غشها وزادها رسوخا في ضلالها وتماديا في هلاكها؟.ففي العمل أيها المصلحون الناصحون المخلصون فإن عهد الغش والخديعة قد أذن بذهاب وأن الله لا يهدي من هو مسرف كذاب"[15].

فهذا تعميم للبدع المنتشرة خص بها الشيخ خطابه للمجتمع وهو يشرح حديث رسول الله ونراه يخصص بالخطاب بدعا بعينها وتخصها بالذكر والنهي عنها واحتسابها.

ومن البدع المنتشرة في زمنه والتي عظمت بها البلية وخصها الشيخ ابن باديس رحمه الله بالتحليل في الدرس الحديثي: بناء المساجد على القبور، فعنون مقالا له:

"بناء المساجد على القبول من فعل شرار الخلق عند الله يوم القيامة"صدّره بحديث عائشة رضي اله عنها: أن أم حبيبة وأم سلمة رضي الله عنهما ذكرتا كنيسة رأينها بالحبشة فيها تصاوير فذكرن ذلك للنبي ﷺ فقال:"إن أولئك إذا كان فيهم الرجل الصالح فمات بنوا على قبره مسجدا وصوروا فيه تلك الصور فأولئك شرار الخلق عند الله يوم القيامة".[16]

بيّن الشيخ أن هذا الحديث صريح في النهي عن بناء المساجد على قبور الصالحين وتصوير صورهم مؤكدا على ما فيه من الوعيد الشديد لفاعله.

أما البعد الواقعي الذي راعاه أثناء هذا الدرس فكان إنكاره لهذا السلوك يسبب تفشيه كظاهرة مخزية في المجتمع فيقول: "هذه هي حالتنا اليوم معشر مسلمي الجزائر وأحسب غيرنا مثلنا ثم نجد كثيرا من مساجدنا مبنية على القبور المنسوب أصحابها إلى الصلاح ومنهم من كانوا معروفين بذلك ومنهم المجهولون فإن قيل: إنما بنيت المساجد على تلك القبور للتبرك بأصحابها لا لعبادتهم قلنا: إن النهي جاء عاما لبناء المسجد على القبر بقطع النظر على قصد صاحبه به ولو كانت صورة البناء للتبرك مرادة بالنهي لاستثناها الشرع، فلما لم يستثنها علمنا أن النهي على العموم، وذلك لأنها وإن لم تؤد إلى عبادة المخلوق في الحال فإنها في مظنة أن تؤدي إلى ذلك في المآل وذرائع الفساد تسد لاسيما ذريعة الشرك ودعاء غير الله التي تهدم صروح التوحيد"[17].

وكعادته في التأكيد على امتثال أوامر الله ورسوله ﷺ في درسه التفسيري أو الحديثي نجد الشيخ ابن باديس رحمه الله تختم مقالته بضرورة الإيمان والامتثال لفحوى هذا النص النبوي والتأكيد على ضرورة الالتزام بما يتضمنه من إرشاد وتوجيه قائلا: "علينا أن نصدق بهذا الحديث بقلوبنا، فنعلم أن بناء المساجد على القبور من عمل شرار الخلق كما وصفهم النبي ﷺ وأن تنطق ألسنتنا بذلك كما نطق به الحديث الشريف وأن تبنى عليه أعمالنا فلا نبني مسجدا على قبر ولا نعين عليه، وأن ننكره كما ننكر سائر المنكرات حسب جهدنا. ومن أعظم الإنكار تبليغ هذا الحديث بنصه وتذكير الناس به والعمل على نشره حتى يصير معروفا عند عامة الناس وخاصتهم إذ لا دواء للبدع الشيطانية إلا نشر السنَّة النبوية، ولا نستعظم انتشار البدعة وكثرة ناصريها فإنها ما انتشرت وكثر أهلها إلا بالسكوت عن مثل هذا الحديث والجهل به.

و لنكن في إرشادنا مقتصرين على إيراد لفظ الحديث وشرحه على أنه واضح مفهوم بنفسه وأن نمس شيئا من شؤون أولئك المقبورين فإنهم إخواننا سبقونا بالإيمان، فلهم علينا حق الدعاء والاستغفار فإذا عملنا كلنا على هذا من

حسن قصد ومحبة في الخير للمسلمين رجونا أن يؤيدنا الله تعالى، ويجعل النفع بأيدينا ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ (الحج: 40).

2- تحديد المعنى الشرعي لمعنى الذكر: ومن جملة ما عالجه الشيخ من قضايا الواقع العقدية والمظاهر الفاسدة التي اكتستها، والضلالات السائدة في الدرس الحديثي تصحيحه للمفهوم الشرعي لمعنى الذكر ومن هو الذاكر؟ وهو يعلق على حديث رواه الإمام البيهقي في "شعب الإيمان"من أطاع الله فقد ذكر الله وإن قلّت صلاته وصيامه وتلاوته القرآن، ومن عصى الله فقد نسي الله وإن كثرت صلاته وصيامه وتلاوته القرآن".

ذلك أن فئات كثيرة من المغرضين جعلوا الذكر أقرب إلى اللهو واللعب منه إلى شيء آخر، حين ركزوا على الجانب الشكلي مشترطين في ذلك ما لم يشترطه الشرع وحين باعدوا بينه وبين الطاعة فقال: "وبهذا الحديث وذلك الأثر نعلم أن المراد من الآيات الآمرة بالذكر كقوله تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ (البقرة: 152). وقوله تعالى: ﴿اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ (الأحزاب: 41)، فليس المراد من الذكر في أمثال هاتين الآيتين خصوصا الذكر اللساني بل المراد الطاعة بجميع أنواعها من صلاة وصيام وصدقة ونصيحة وتلاوة القرآن وتسبيح وتحميد وتهليل وغير ذلك فإن المطيع إنما أطاع الله لكونه ذكر بقلبه ولسانه.

و غرضنا من تقديم هذا الحديث وهذا الأثر إلى القراء أن يعلموا:

أولا: أن معنى الذكر أوسع مما يتخيلون وأن بعض من يعدونهم من العُباد في غير الذاكرين هم في عرف الشرع من الذاكرين.

و أن يعلموا ثانيا: أن ما عليه كثير ن العلوم من الاعتماد على السبح دون الطاعة هو غرور في غرور وأن كثيرا ممن يعد نفسه ويعده الناس من الذاكرين هو في عرف الشرع من الغافلين.

فيا أيها المسلمون تثبتوا في الحقائق الشرعية واطلبوا تفسيرها من صاحب الشريعة أو ممن قرب زمنه من زمنه ولا تعتمدوا في فهم حقائق دينكم على عرفكم وعاداتكم فإن الجهل بالسنَّة وخروج أمر العامة من يد العاملين بها مما ابتليت به الأمة الإسلامية قديما"[18].

3- الحث على طلب العلم والتعلم والتعليم: كانت قضية التعلم والتعليم وطلب العلم من أمهات القضايا التي ركز عليها الشيخ رحمه الله وجعلها أساسا للتغيير المنشود ودعامة الإصلاح المرجو تحقيقه.

و لهذا لم تخل مقالاته التفسيرية أو الحديثة وكذا دروسهما من التنبيه على أهميتها وضرورتها لتحقيق ذلك.

خاصة والمجتمع الجزائري يئن آنذاك تحت وطأة الجهل الذي كان الاحتلال يغذيه ويعمل على تفشيه ونشره في الأوساط الاجتماعية وعلى كل المستويات حيث دعت الضرورة الإصلاحية إلى مجابهة هذه الحملة الرهيبة والمنظمة.

و كان الشيخ في كل مناسبة دينية أو وطنية يسلط الأضواء على قضية العلم والتعلم رائده في ذلك النص القرآني والحديث النبوي ، يقينا منه بأهمية ذلك إذ عده من أوكد الواجبات على المسلم عموما والجزائري خصوصا.

هذا ما يستلهمه المستقرئ لدروسه الحديثة التي كان ينشرها في "البصائر" و"الشهاب".

و تذكر هنا ما عنون به درسه الحديثي وهو يسوق ثلاثة آثار عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما في هذه المسألة.

قوله: "العلم وتعلمه" ومضمونه هذه الأحاديث الثلاثة.

أولها: "أن الرجل لا يولد عالما وإنما العلم بالتعلم".

وثانيهما قوله عن رسول الله ﷺ: "من جاء أجله وهو يطلب علما ليحيي به الإسلام لم تفضله النبوة إلا بدرجته".

وأما الثالث: "ففي سعي ابن عباس رضي الله عنهما في طلب العلم من أصحاب رسول الله ﷺ ممن سبقه لسماعه وكونه كان يسعى لذلك .

استخلص الشيخ من هذه الآثار الثلاثة فائدتين فقال: "أولاهما: حسن أدب آل الرسول ﷺ وثانيهما: سعي ابن عباس رضي اله عنه في طلب العلم ذلك السعي وهو الذي روى عنه البخاري في صحيحه أنه قال: ضمني النبي ﷺ إلى صدره وقال: اللهم علّمه الحكمة"[19].

فلم يتكل على دعاء الرسول ﷺ وهو يؤمن بقبوله لأنه يفهم أن الدعاء بالشيء دعاء بتيسير أسبابه فالدعاء لا ينافى تعاطي الأسباب بل على الداعي أو المدعو له أن لا يهمل الأسباب اكتفاء بالدعاء[20].

كما بوب بابا آخر في "العلم وتعليمه" وساق جملة من الآثار الحاثة على ما جاء في عنوان الباب من ضرورة تعليم الناس العلم والسعي في نشره ومن جملة ما ساق:

أثر عن إبراهيم النخعي في رجحان كفة حسنات الساعي لتعليم العلم... فقال: " بلغني أنه إذا كان يوم القيامة توضع حسنات الرجل في كفة وسيئاته في الكفة الأخرى"، وحديث عن معاذ بن جبل مرفوعا: "تعلموا العلم فإن تعلمه لله خشية وطلبه عبادة...."[21].

و آخرها قول لكعب الأحبار: " أوحى الله إلى موسى تعلم الخير وعلمه الناس فاني منور لمعلم العلم ومتعلمه قبورهم حتى لا يستوحشوا لمكانهم "[22].

و في كل ذلك دعوة ضمنية منه لتعليم الناس العلم خاصة مع ما كان يكابده المجتمع الجزائري وقتئذ من شيوع الجهل الفاضح والخرافة الزائفة والبدع الضالة الخادمة للمشروع الاستعماري.

هذا ما فقهته جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ورئيسها مما جعلهما يريان في دور العلم اللبنة الأولى في المشروع الإصلاحي لإجلاء الاستعمار الفرنسي.

فسعت جاهدة شرقا وغربا وشمالا وجنوبا بنشر العلم وتعليمه وفتح المدارس في القرى والمداشر والمدن في كل هذه الأنحاء إدراكا منها لأهمية انتشار العلم في الأوساط الاجتماعية.

و كانت المدرسة الأولى متمثلة في المساجد باعتبارها المكان الذي تغشاه جميع شرائح المجتمع، حيث دعا الشيخ رحمه الله إلى ضرورة الابتداء بالتعلم فيها كونها دور علم وعبادة منها تبدأ الخطوات الأولى في طلب العلم وتحصيله وهي بداية قوية لمجابهة المستعمر باللوح والعلم والكتاب.

ومن عظيم اشتغال الرئيس الشيخ ابن باديس رحمه الله بالعلم وتعليمه وتنزيله لواقع الناس أنه لا يمر بحديث إلا ونراه يستنبط منه دررا وجواهر يضئ بها سماء الجزائريين وأبصارهم.

و مثال ذلك ما استنبطه من فوائد بعد ذكره لحديث أبي الواقد الليثي رضي الله عنهما "بينما رسول الله ﷺ جالس في المسجد والناس معه إذ أقبل ثلاثة، فأقبل اثنان إلى رسول الله ﷺ وذهب واحد، فلما وقفا على مجلس رسول الله ﷺ، فأما أحدهما فرأى فرجة في الحلقة فجلس فيها وأما الأخر فجلس خلفهم فأوى إلى الله فأواه الله، وأما الآخر فاستحيا من الله، فاستحيا الله منه، وأما الآخر فأعرض الله عنه"[23].

قال مبرزا تلك الدرر المتعلقة بواقع تعليم العلم وفيها ترغيب منه في ذلك:

الأولى: الجلوس في المساجد حلقا للتعلم والتعليم

الثانية: تعليم الناس ووعظهم وإرشادهم في المساجد وهذا مما أجمع عليه المسلمون في جميع الأعصار.

الثالثة: التحليق للعلم وتنظيم الحلقة وسد فرجها فهي في ذلك كصفوف الصلاة

الرابعة: فضل الإقبال على مجالس العلم وكراهة الإعراض عنها لغدر

الخامسة: بيان أحكام الأعمال التي تقع أمام الناس حين وقوعها ليرسخ علمها ويتعظ بما فيها.

السادسة: لوم من زهد في الخير ولم يحرص عليه وإن لم يكن ذلك الخير من الواجبات عليه في تلك الحال.

فالمتأمل لهذه الفوائد والأحكام التي استنبطها الشيخ من النص الحديثي وهي في مساجد عمومها دعوة للعودة لما كانت عليه أحوال الماجد في عهده ﷺ وأدائها لدورها الفعال في التعليم كونها منابر لنشر الفضيلة ووأد الجهل والرذيلة [24].

ولا يفوتنا في هذا المقام التنويه بفرع هام متعلق بالعلم والتعليم ركز الشيخ عليه في دروسه الحديثية وهو حق النساء في التعليم لأنه كان يعد المرأة الصرح القوي لبناء الأسرة.

4- حق المرأة في التعليم: لقد أدرك الشيخ ابن باديس رحمه الله أنه لا يمكن إحداث تغيير إيجابي في المجتمع والمرأة محرومة من حق التعلم؛ لأن الأعراف والعادات الجاهلية أرادت ذلك وهي أعراف ناقدة وعادات متحكمة ليس من اليسير تجاوزها أو العمل بخلافها لأن أعداء الفكرة يهيجون العوام ضد الرجل وفكره، فلم يجد الشيخ فرصة مواتية للدعوة إلى تغيير هذا الواقع المؤلم أحسن من لاستناد إلى سنة النبي ﷺ.

ففي مقال له أورد فيه حديث البخاري عن ابي سعيد الخدري -رضي الله عنه- قال: "قالت النساء للنبي ﷺ غلبنا عليك الرجال اجعل لنا يوما من نفسك، فوعظهن يوما لقيهن فيه فوعظهن وأمرهن فكان مما قال لهن: ما منكن امرأة تقدم ثلاثا من ولدها إلا كان لها حجابا من النار فقالت امرأة واثنين قال واثنين"[25].

كما دعا صراحة إلى تعليم المرأة، لأن المجتمع لا ينهض إلا بالجنسين معا مثل لطائر لا يطير إلا بجناحيه معا فقال: "النساء شقائق الرجال في التكليف فمن الواجب تعليمهن وتعلمهن، وقد علّمهن صلى الله عليه وسلم وأقرّهن على طلب التعلم"[26].

و قال في موضع آخر داعيا إلى تعليم المرأة: "فاستنادا إلى هذه الأدلة وسيرا على ما استفاض في تاريخ الأمة من العالمات الكاتبات الكثيرات، وعلينا أن ننشر العلم بالقلم في أبنائنا وبناتنا في رجالنا ونسائنا على أساس ديننا وقوميتنا إلى أقصى ما يمكننا أن نصل إليه من العلم الذي هو تراث البشرية جمعاء وثمار جهادها في أحقاب التاريخ المتطاولة وبذلك تستحق أن تتبوأ منزلتها اللائقة والتي كانت لنا بين الأمم"[27].

إضافة إلى دعوته لتعليم المرأة، دعا الشيخ صراحة إلى خروجها إلى المساجد لتشهد الخير والتفقه في الدين وتكون معولا للبناء وأداة للإصلاح في المجتمع.

فأورد حديث مسلم في صحيحه بسنده عن سالم بن عبد الله بن عمر أن عبد الله بن عمر رضي الله عنه قال: "سمعت رسول الله ﷺ يقول : "لا تمنعوا نساءكم المساجد إذا استأذنكم إليها قال: فقال: بلال بن عبد الله: والله لنمنعهن قال

فأقبل عليه عبد الله فسبّه سبا شديدا ما سمعته سبّه مثله قط وقال أخبرك عن رسول الله ﷺ وتقول: والله لنمنعهن"[28].

ثم كتب يؤكد بأن خروج النساء إلى المساجد أمر ثابت بالسنَّة العملية والقولية لكن بجملة من الشروط والضوابط التي وضحها أهل العلم في مواضعها وأن الواجب في حق المسلم ألا يعارض أمرا ثبت أنه من الدين وشهدت له الأدلة الشرعية 'هذا الذي وقع من بلال كثيرا ما يقع فيه مثله أو نحوه من أهل الجهل أو البدعة الذين شبوا عليها وشاقوا حتى صارت البدعة عندهم سنة والسنَّة بدعة فإذا ذكرت لهم الحكم الشرعي بدليله من الكتاب والسنَّة صدوا ونفروا وأبوا واستكبروا وصارحوا بالمخالفة أو سكتوا وأضمروا الخلاف وما هذا شأن المؤمنين محذرا في الأخير بقوله: "فحذار إذا سمعت حكما شرعيا أو نصا قرآنيا أو حديثا نبويا صحيحا أن تقابل بالخلاف أو تضمر الخلاف بل نشرح بذلك صدرا ولا يكن في صدرك حرج مما قضى الله ورسوله[29].

5- الدعوة إلى التكافل الاجتماعي: سبق أن أشرت في مقدمة هذه الورقة أن الشيخ رحمه الله لم يقصر اهتمامه على الجوانب الفقهية والتشريعية بل تجاوز ذلك إلى القضايا النفسية الاجتماعية بل والسياسية والحضارية ذلك أن الهدف من شرح السنَّة عنده والاعتناء بمحتواها هو علاج مشكلات الأمة على جميع المستويات.

و بعد تقديم نماذج من ذلك في المجال العقدي والفقهي والتشريعي نسوق نموذجا في المجال الاجتماعي والسياسي والحضاري، إذ أن الدعوة إلى التكافل الاجتماعي في تلك الحقبة الزمنية أراه يمثل بعدا اجتماعيا وسياسيا وحضاريا في التعامل مع الوضع الاستعماري وهيمنته على الفرد هيمنة شاملة .

وهذا ما نوّه إليه الشيخ ابن باديس رحمه الله وهو يشرح حديثا لأبي موسى الأشعري رضي الله عنه: "مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم مثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر"[30].

يرى الشيخ أن الحديث يتضمن معنى كبيرا ومهِّما هو ارتباط كل فرد بأمته ارتباط الجزء بالكل وعليه فالفرد ينظر إليه في النظر الاجتماعي العام من

خلال ما ينظر به إلى أمته سواء أساواها في المستوى الذي هو فيه من رقي أو انحطاط أم كان أسمى منها أو أدنى فقيمته في النظر الاجتماعي العام هي قيمتها[31].

و المتأمل في كلام الشيخ يدرك يقينا البعد الواقعي الذي رامه وهو يشرح الحديث النبوي ألا وهو قطع الطريق على الاستعمار الذي كان يراهن على إيجاد نخبة متغربة يقطع كل لها بتاريخها ودينها وقوميتها وتسعى جاهدة للاندماج في حضارة الغرب، والانصهار في ثقافته ويعطيها بعض الحقوق الشكلية فيبني بذلك جسرا من خلاله سياسة الاندماج والذوبان في الحضارة الغربية.

هذا من جهة ومن جهة أخرى كان الشيخ يروم استنهاض همم بعض النخب المثقفة الغربية وتخرّجت من الجامعات الفرنسية أن تقوم بواجبها تجاه أمتها فتوجه إليها قائلا: "واليوم وقد تجلت لكم الحقيقة علميا وعمليا عليكم أن تلتفتوا إلى أمتكم فتنشلوها مما هي فيه بما عندكم من خبرة محافظين لها على مقوماتها سائرين بها في موكب المدنية الحقة بين الأمم وبهذا تخدمون أنفسكم وتخدمون الإنسانية بإنهاض أمة تاريخية عظيمة من أممها ثم لا يمنع هذا من أخذ العلم عن كل أمه وبأي لسان واقتباس كل ما هو حسن مما عند غيرنا ومد اليد إلى كل من يري التعاون على الخير والسعادة والسلام[32].

و لأن الشيخ عبد الحميد بن باديس رحمه الله كان مدركا لسياسة المستعمر وأهدافه القاضية بين الشعوب الإسلامية بل وبين فئات المجتمع الواحد من خلال بث النعرات الطائفية والعرقية والجهوية المقيتة. فقد كان هدفه من شرح السنَّة هو استيحاؤه أن لا عزة للمسلمين إلا باتحادهم وتعاونهم، وأن الاتحاد عمل يبدأ بالأفراد لينتهي بين الحكومات ورجال السياسة.

و أن يعمل الكل جاهدا على تفقد البناء وتمتينه حالا بعد حال ومحاربة كل مظاهر الاختلال التي تعتريه والفساد التي تطرأ عليه فكتب تحت عنوان فرعي "تبصرة" ما نصه: "ألا ترى البنيان كيف يتركب من الحجارة الكبيرة والحجارة الصغيرة والمواد الأخرى التي تلحم بها الحجارة وتكسى وكل ذلك محتاج إليه في تشديد البنيان فكذلك بنيان المؤمنين فإنه مكون من جميع

أفرادهم، على اختلاف طبقاتهم فالكبير والجليل له مكانه والصغير والحقير له مكانه وعلى كل واحد أن يسد الثغرة التي من ناحيته مع شعوره بارتباطه مع غيره من جميع أجزاء البنيان التي لا غناء لها عنه كما أنه لا غناء له عن كل واحد منها فكل واحد من المؤمنين عليه تبعته فبمقدار المركز الذي هو فيه والقدرة التي عنده، ولا يجوز لأحد وإن كان أحقر حقير أن يخلّ بواجبه من ناحيته فإنه إذا أزيل حجر صغير من بنيان كبير دخل فيه الخلل بمقدار ما أزيل وإذا ابتدأ الخلل من الصغير تطرق للكبير"[33].

فالشيخ يؤكد على ضرورة التلاحم بين الأفراد مهما كانت مكانتهم الاجتماعية ومستواهم العلمي وألا تحقرنّ الفرد دوره في المجتمع والحرص على تماسكه ويختتم التبصرة بقوله: "ثم ألا ترى أصابعك وفيها القوي وفيها الضعيف حتى إذا شبكتها صارت كشيء واحد له قوة ومتانة زائدة وكل أصبع منها يمكن أن يلوى مادام وحده فإذا شبكتها عسر عليها وقوي أمرها، فكذلك المؤمنون باتحادهم وفيهم القوي وفيهم الضعيف تكون لهم قوة عامة زائدة وكل واحد منهم بمفرده يمكن قهره فأما إذا اتحدوا فإنهم يكونون قوة اتحادهم في مأمن من كل قهر"[34].

و ختاما نقول من خلال هذه الأمثلة وغيرها كثير نجد الإمام عبد الحميد بن باديس يغوص في أعماق النص النبوي ليستنبط منه جملة من الأحكام التشريعية والسنن الكونية التي تحكم سير الحضارات وقيام المدنيات التي يعرض واقع الأمة الإسلامية على ذلك كله، ليحدد مدى قرب أو بعد واقع الأمة من النموذج الذي حدّده له القرآن والسنَّة.

ذلك أن الهدف الأسمى من وراء دراسة السنَّة عنده هو بناء الأمة الإسلامية وبذل الجهود للعودة بها إلى المكانة التي حددتها لها السنَّة.

خاتمة:

وعليه فقد أمكننا الخروج بتصور حول عمق البعد الواقعي الإصلاحي الذي توخاه الشيخ من خلال مقالاته في الدرس الحديثي فيما تطرق إليه من مواضيع حساسة ومتنوعة على جميع المستويات والتي تعلقت بحال الجزائريين يمكن إيجاز مظاهر ذلك التحري في هذه النقاط:

1-الدقة في انتقاء الأحاديث ذات الصلة بالواقع والتبويب لها بما يوصل الرسالة المقصودة.
2-الدعوة إلى التمسك بكتاب الله وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام باعتبارهما مجدافي النجاة والخلاص ونبذ كل من شأنه أن يحل محلها من بدع وضلالات....
3- التأكيد على إلزامية طلب العلم والتعلم والتعليم وإذاعة هذا بين أبناء وطنه مبادرة منه لنجاح مشروعه الإصلاحي للقضاء على الاستعمار وإجلائه لأنه كان يغذي الجهل ويعزز تلك البدع والضلالات التي لا يتم دحضها إلا بالعلم والتعليم.
4- الحرص الواضح على مكانة المرأة في المجتمع الجزائري بالحث على تعليمها وإعدادها لتولي شؤون التربية والإصلاح المنزلي.
5- التأكيد على مبدأ التكافل الاجتماعي الذي يحقق القوة والمتانة الاتحاد وهما ضرورتان كلبنة أساسية في المشروع التغييري الإصلاحي الذي يهدف إلى إجلاء المستعمر الذي يعتدي الفرقة وسياسة التغريب والإدماج.

وعليه نقول: يبقى الشيخ عبد الحميد بن باديس قدوة بعد النبي ﷺ لمن يتولى راية الإصلاح والتغيير وهو أصدق من نّظر وطبّق مشروع إصلاحي ناجح على حد بعيد مقارنة غيره من المصلحين كيف لا وهو القائل: "لا نجاة لنا من هذا التيه الذي نحن فيه والعذاب المنوع الذي نذوقه ونقاسيه إلا بالرجوع إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وما كان عليه السلف الصالح...."[35].

قائمة المصادر والمراجع:

1- عمار طالبي، آثار الشيخ عبد الحميد بن باديس، ط1، الشركة الجزائرية 1968م.
2- عمار طالبي، ابن باديس حياته وآثاره، الشركة الجزائرية، 1984م.
3- ابن باديس، مجالس التذكير من كلام البشير النذير، مطبوعات وزارة الشؤون الدينية، الجزائر، ط1 .1983.
5- الترمذي محمد بن عيسى، سنن الترمذي، الجامع الكبير، تحقيق: مركز البحوث، دار التأصيل، ط2، 2016م.

6- البخاري محمد بن اسماعيل، صحيح البخاري، الجامع الصحيح، طبعة دار الشعب، د.ت.
7- ابن عبد البر، جامع بيان العلم وفضله، تحقيق فواز احمد زميرلي، ط1، 1424هـ/2001م.
8- مالك بن أنس، الموطأ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار التراث العربي، بيروت لبنان، ط2، 1406هـ / 1985م.
9- الإمام مسلم أبو الحسين مسلم بن الحجاج، صحيح مسلم، إصدارات وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف، المملكة العربية السعودية، طبعة منقحة مع ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي.
10- الشوكاني محمد بن علي، نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار، تحقيق عصام الدين الصبابطي، وعماد السيد، دار الحديث، القاهرة، مصر، ط1، 1413هـ / 1993م.

(1) عمار طالبي، آثار الامام عبد الحميد بن باديس، ج2، ص388.
(*) والمكانة ظاهرة في تسنية إحدى الجرائد بـ "السنة"
(2) المصدر نفسه، ج4، ص68.
(3) عمار طالبي، المصدر نفسه ج4، ص100.
(4) يقصد بذلك حديث في الموطأ وهو حديث: " لي خمسة أسماء: أنا محمد وأنا أحمد وأنا الماحي الذي يمحو الله به الكفر، وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدميه، وأنا العاقب"
(5) عمار طالبي، آثار الشيخ عبد الحميد بن باديس، ط1، الشركة الجزائرية 1968م، ج2، ص309.
(6) منهم محمد النخلي القيرواني (1342ه-1923م) والشيخ محمد الطاهر بن عاشور (1393ه-1973م).
(7) ابن باديس، مجالس التذكير من كلام البشير النذير، مطبوعات وزارة الشؤون الدينية، الجزائر، ط1. 1983. ص152.
(8) المصدر نفسه ص153.
(9) المصدر نفسه ص154.
(10) المصدر نفسه ص155 .
(11) المصدر نفسه ص156.
(12) المصدر نفسه ص95.
(13) الترمذي، السنن كتاب الفتن باب لا تقوم الساعة حتى يخرج دجالون ج4.ص499.
(14) مجالس التذكير، ص94.
(15) مجالس التذكير، ص97.

(16) البخاري، الصحيح، كتاب أبواب المساجد، باب هل تنبش قبور مشركي الجاهلية، ج1، ص165.
(17) مجالس التذكير، ص151.
(18) آثارالشيخ عبد الحميد ابن باديس، ج2، ص201.
(19) ابن حجر العسقلاني، فتح الباري شرح صحيح البخاري، حديث رقم 3756، 100/7.
(20) مجالس التذكير، ص192.
(21) ابن عبد البر، جامع بيان العلم وفضله، تحقيق فواز احمد زميرلي، ط1، 1424ه.2001م، ج1، ص102.
(22) ابن عبد البر، جامع بيان العلم وفضله، ج1، ص127.
(23) الموطأ، كتاب السلام، باب جامع السلام، ج2، ص960.
(24) انظر: مجالس التذكير، ص69.
(25) البخاري، صحيح البخاري، باب هل للنساء يوم على حده في العلم.
(26) آثار الامام عبد الحميد بن باديس، ج2، ص158.
(27) المصدر نفسه، ج2، ص161.
(28) صحيح مسلم، انظر: نيل الأوطار، ج4، ص11.
(29) المصدر نفسه.
(30) رواه البخاري ومسلم عن النعمان بن بشير.
(31) انظر:آثار الشيخ الإمام، ج2، ص103.
(32) آثار الشيخ عبد الحميد بن باديس، ج2، ص104.
(33) المصدر نفسه، ج2، ص101
(34) آثار الشيخ عبد الحميد بن باديس ، ج2، ص101.
(35) عمار طالبي: ابن باديس.. حياته وآثاره، 406/1.